

ظاهرة الزلزال

بين التفسير الطبيعي والتفسير الأخلاقي

✍ د. بوعبد الله غلام الله (*)

الزلزال

الذي فاجأ عاصمة الجزائر وضواحيها، غروب شمس يوم الأربعاء 19 ربيع الأول 1424 الموافق 21 ماي 2003، كان بمثابة الهزة العنيفة التي توقظ النائمين وتنبه الغافلين.

لقد زهقت به أرواح العديد من المواطنين قاربت 2500 وابتلي فيه بجراح ما يقرب من 15000 مواطن.

وإذا كانت اللحظة التي ترتج فيها الأرض تحت أقدام الأحياء وتتأثر فيها سقوف منازلهم وينقلب سافلهم على عافلهم... إذا كانت هذه اللحظة يستحيل

توقعها بالضبط، إذ أنها في الوقت الراهن كالساعة لا يعلمها إلا الله، إذ هي تأخذ الناس بغتة وتفاجئهم على غرة إلى درجة أن الأغلبية العظمى من المزلزلين يضيع منهم هدوؤهم وتتخلى عنهم طمأنينتهم... وإذا كانوا لا يستطيعون لها حيلة، فلا أقل من أن تذكرهم بأن أية حالة لا تدوم. وأن قوى الإنسان مهما بلغ به الغرور فلا بد أن تدركه حالة من الضعف لا يدري كيف يواجهها إلا أن يأخذ الله بيده، وأن هناك ما هو أقوى منه وأشدّ، قال رسول الله صلى الله عليه

(*) وزير الشؤون الدينية والأوقاف - الجزائر

وسلم: ((إنما الصبر عند الصدمة الأولى))⁽¹⁾.

والذي لا يوجد نفسه ولا يختار عصره ولا موقعه ولا منبته ولا مرجعه ولا بدايته ولا منتهاه، فلا شك أنه من أضعف الخلق وأوهى الموجودات، إنه لا يملك حولا ولا قوة... ومع ذلك فإنه يتمتع بالذكاء الذي يشمل التفكير والتذكر والروية، فذكاءه هو مصدر قيمته ومناط كرامته، فهو النور الذي يضيء له الطريق ويهديه في غياهب الجهل والغرور، ويعصمه من الضلال، غير أن هذا الذكاء ليس عضوا فاعلا على الدوام ولا هو مصباح منير في كل حال، ومن ثم فإنه يفقد كل قيمة ويعمي عن كل حيلة في حال انطوائه وركوده، وتوقفه عن العمل والنشاط، إذ يطغى على الإنسان في هذه الحالة دوافع الغريزة التي تكتسي -في حال الغفلة- ثوب الذكاء وتتسلح بسلاحه، فتصبح أخطر على البشر من كل الأخطاء وتقوده إلى مهاوي التردى والانحدار، لأن الغرائز متى لبست ثوب

الذكاء وتسلحت به تصبح هوى والهوى محدود في الزمان والمكان، لا يدرك المطلق ولا يهتدي به ولا إليه.

والذكاء بعد أن كان في حالة نشاطه سيدا يبدع القيم ويسمو باستمرار على نفسه أصبح في حالة غفلته وركوده عبدا تركبه الغرائز، وتفعل به في حياة الإنسان ومصيره ما لا يمكنها أن تقوم به عند الكائنات المحرومة من الذكاء الإنساني.

والغريزة عندما تتقمص ثوب الذكاء تبرز وكأنها هي الذكاء محلل الظواهر ومكتشف العلاقات، غير أن العلاقات التي يبدو للغريزة أنها تستشفها ما هي في الواقع إلا من صنع الخيال، يطبعها انسجام ظاهري يقويه خداع الحواس، وأبرز مثال على خداع الحواس تلك النظرية المتأفيزيقية المشهورة التي تتحدث عن العناصر الأربعة التي يتشكل منها الكون، اثنان ثقيلان هما التراب والماء واثنان خفيفان هما الهواء والنار. وما الكون الظاهر في زعمها إلا تركيب مكثف من هذه العناصر. ومثل هذا التفسير

المتافيزيقي للظواهر يبرز التفسير الخرافي الذي يسعى إلى أن يفسر الظواهر المادية الطبيعية مثل الأمطار والزلازل والرعود وغيرها بأسباب نفسية أو روحية، كما كان اليونانيون القدامى يخترعون لكل ظاهرة طبيعية إلها، بل ويمنحهم الخيال إلى أن يتصوروا اختلافا وصراعا بين تلك الآلهة مما يؤدي إلى حدوث الكوارث.

ومن العجيب أن عدداً كبيراً من فقهاء المسلمين الذين ينكرون الفلسفة، ويكفرون الفلاسفة يأخذون بأفكار الفلاسفة المتافيزيقيين ومناهجهم ويفسرون الظواهر مثلهم بأن يجعلوا علاقة بين ظاهرة طبيعية مثل الزلازل مثلاً وبين ظاهرة اجتماعية أو أخلاقية مثل الزيغ والانحراف.

وقد ظهر مثل هذا التفسير للظواهر الطبيعية بظواهر اجتماعية في عدة مناشير بُثت في الأسواق وفي أروقة بعض المساجد.

إننا لا نريد أن نناقش دوافعها وإنما الذي يجب فهمه وتوضيحه هو أن

استعمال آيات القرآن المحكمة في غير ما نزلت به وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في غير ما وردت فيه يعتبر أكبر مظهر من مظاهر الزيغ والانحراف، لأنه لا يتعلق بسلوك الأفراد وانحرافهم عن الأخلاق الفاضلة فقط، وإنما هو يشير إلى الرغبة الملحة في استعمال نصوص الشريعة المطهرة ذريعة للانحراف وأداة لابتغاء الدنيا.

نعم، إن القرآن يذكرنا بقصص الأمم الغابرة، وبما أهلكهم به الله مما سلطه عليهم بكفرهم واعتدائهم على أنبيائهم فأغرق فرعون وجنده، وأهلك قوم نوح بالطوفان بعد أن أمره بصنع السفينة لينجو هو ومن معه، كما أهلك قوم لوط الذين أرسل عليهم حجارة من سجيل بسبب انحرافهم عن سنن الله في التناسل، وغيرهم كثير... فكانت تلك معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخير بذلك أمة محمد عليه الصلاة والسلام فقال له ربه:

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا

إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين⁽²⁾.

(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)⁽⁴⁾.

فرد عليهم القرآن مباشرة بتكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)⁽⁵⁾. يعني وفيهم من يستغفر.

إذن أمة محمد لا تعذب بما عذبت به الأمم السالفة وفيهم من يستغفر، يبقى أن نضع السؤال التالي:

ما هي علاقة الناس - ومنهم المسلمون - بالكون؟

هنا كذلك يجب القرآن بأنها علاقة تسخير، ورد هذا في عشرات الآيات في القرآن الكريم مجملاً أحياناً ومفصلاً أحياناً أخرى، معللاً وغير معلل.

فمن المعلل قوله تعالى: (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من

ولما كانت أخبار هذه الأمم الغابرة متداولة بروايات مختلفة طغى عليها الفكر الخرافي، أنزل الله أخبار هذه الأمم مبرأة مما علق بها من الخرافات، وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: (ولو لا فضل الله عليك ورحمته لمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً)⁽³⁾.

ولكن هل أوعد الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن يصيبها ما أصاب الأقوام السابقة؟

لم يحدث هذا في عهده عليه الصلاة والسلام، رغم كفر قريش وإماعتهم في الإساءة إليه، لأن معجزته عليه السلام كانت القرآن.

ويذكر القرآن أن كفار قريش تحدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا:

هذه الخرافات التي يريد بعض المشعوذين أن يردونا إليها.

إن المعرفة العلمية الموضوعية التجريبية التي يتولاها ذوو الاختصاص من أهل العلم في الجامعات والمخابر هي التي تمكن الإنسان من التحكم في الظواهر التي سخرها الله لنا، لا أتذكر بالضبط من هو العالم -هل هو باستور أو كلود بيرنار- الذي عندما سئل: "كيف تمكنت من التحكم في ظواهر الطبيعة؟" أجاب: "بالخضوع لقوانينها".

إن جهلنا بالقوانين الموضوعية التي تتحكم في الظواهر الطبيعية لا يمنعنا فقط من التحكم بما سخر الله لنا والتمتع به. وإنما يجرمنا كذلك من اتقاء العواقب الوخيمة التي قد تنجر من حركة تلك الظواهر التي نجهلها، حتى وإن صمنا وصلينا وحججنا وتحجبت نساؤنا.

لأن هذا جزء فقط من طاعة الله، والجزء الآخر هو الأخذ بأسباب العلم والاستعداد لكل الطوارئ. إننا ما لم نفعل ذلك نكون كمن يؤمن ببعض الكتاب

من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً^(٦).

ومن المحمل قوله تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه)^(٧).

ومن المفصل ما جاء في أوائل سورة النحل من الآية رقم 5 إلى الآية رقم 18. وما دام هذا التسخير معللاً أو مرتبطاً بأصل التكريم وهو العقل فإن تفعيل العقل هو الذي ييسر عملية التسخير. قال تعالى: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)^(٨).

فالتسلح بالعلم هو الذي يمكن الناس من التحكم في الظواهر الطبيعية التي سخرها الله لهم والاستفادة منها.

والعلم هنا لا يتمثل في تلك العلاقات الميتافيزيقية الشكلية البسيطة، ولا في اعتماد العلاقات الخيالية الضالة المضلة التي تتوهم أن جميع الكائنات لها أرواح، وأن حركة الأجسام الطبيعية متوقف على نوازع الأرواح التي تتخللها... وأمثال

ويكفر ببعض، فجهلنا بعلوم الصحة وعوامل الوباء يجرمنا من اتخاذ أسباب الوقاية، وجهلنا بقوانين التسيير الاجتماعي والاقتصادي يعرضنا للفتن والفقر، وجهلنا بحركة السيول وطبيعة الأرض التي نبنى فوقها مساكننا ومصانعنا يعرض مدنا وأحياءنا إلى الانجراف والزلزلة وقديما قيل: يصنع الجاهل بنفسه ما لا يصنع العدو بعده.

إذن فالظواهر الطبيعية تخضع لقوانين، أو هي تجري وفق علاقات ثابتة، سماها القرآن (سنة الله) قال تعالى: (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)⁽⁹⁾، هذه العلاقات لم تأت اعتباراً ولا مصادفة، وإنما هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء⁽¹⁰⁾.

ومن أجل ذلك كان العلم يدعو إلى الإيمان وإلى كريم الأخلاق، ونحن نرى أن أحسن المواعظ ما كان يعتمد على المعرفة العلمية الصحيحة وما كان يجعل الناس على بصيرة من أمرهم ومما يحيط بهم.

والعالم المفيد في المجتمع هو الذي يجتهد في تنبيه الغافلين وإيقاظ الذكاء المنطوي الراكد، ويبحث فيه همة النشاط ويحثه على البحث والتحليل والتعمق في اكتشاف العلاقات التي تحكم مختلف الظواهر: البيولوجية والاجتماعية والاقتصادية والفيزيائية الكونية... الخ، ثم يعمل العالم المفيد الناصح زيادة على ذلك في تنبيه الذكاء وتحذيره من الوقوع في الغرور الذي يجعله عبداً للهوى وفي خدمته.

فلا بد من إخضاع قوة الذكاء المتأججة الجارحة إلى حكمة العقل المرادف للحق والمدرّك له، (وما يعقلها إلا العالمون)⁽¹¹⁾.

قال تعالى مخاطباً نبيه داود عليه السلام: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)⁽¹²⁾.

فالواعظ الناصح الناجح ليس من يخوف الناس مما يجهلون، وإنما هو من

يرشدهم ويعلمهم ويجعلهم يعملون بما يعلمون.

الهوامش

(1) أخرجه الجماعة عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) سورة يوسف/ الآية 03.

(3) سورة النساء/ الآية 113.

(4) سورة الأنفال/ الآية 32.

(5) سورة الأنفال/ الآية 33.

(6) سورة الإسراء/ الآية 70.

(7) سورة الجاثية/ الآية 13.

(8) سورة العنكبوت/ الآية 43.

(9) سورة الأحزاب/ الآية 62.

(10) سورة النمل/ الآية 88.

(11) سورة العنكبوت/ الآية 43.

(12) سورة ص/ الآية 26.